مقالة فى الفعل العربى

(قراءة تأصيلية فى منطق اللغة العربية ونسق الخطاب الإسلامى)

هكذا بدأت

«أود أن أخرج قليلا عن هذه المدينة ،
اننى اشتاق إلى رؤية السماء البعيدة
والأرض المترامية» .

بدوى فى المدينة

لا يزال الخطاب المتداول بين الناطقين بالعربية المفكرين بها – إلى الآن – خطابا كسيحا . لماذا ؟ ربما لأنه لم يولد بعد الطاقة الرمزية الكافية للتحرر والنفاذ. وربما لأن زخم الفعل الواقعى ، لأصحاب الخطاب ، عاجز عن تحرير قوة دفع تحرك الرحى النائمة نوم السلاحف الهرمة المقلوبة ، وربما افتقادا لمفاصل الحركة، أو تيارات التواصل ، أو انفتاح المفاهيم .... أو ارتعاب منتجى الخطاب من حصص الموت ، مهما كانت الدواعى فان الخطاب العربى لا يزال سيئا. من مؤشرات هذا السوء ان الخطاب لا يبلغ مداه . ومدى الخطاب هو المخاطب بل وأبعد من المخاطب إلى استجابته . فهل المخاطب عاجز عن الفهم ؟ – ان كل خطاب له استراتيجية الوصول – أيا كان ذلك الوصول – ولكن خطابنا عاجز عن الوصول . والعجز عن الوصول يثير حفيظة الفكر المراجع على المنطلقات ، هل المنطلقات عاجزة؟ لنحور قليلا ونقل . ما هى المنطلقات ؟ ونغامر أكثر ونقول / هل للخطاب العربى منطلقات ؟ ومن خلف ذلك كله / هل هناك من يستطيع أن يطلق خطابا؟ بصورة أعمق هل هناك خطاب عربى ؟ .

هذه الاسئلة الابتدائية تعيدنا إلى الوراء ولكن إلى الأعماق رغم ذلك .

أدون أولاً أن الخطاب العربى لا يزال سيئا باعتراف أطراف الخطاب القائل والمتقبل . هل هذا العجز مقصور على آليات الخطاب وحدها؟ أم على طرفى الخطاب؟ أم له جذور فى نسق الفعل العربى العام ؟ ويكون الخطاب من ثم غير عاجز بل مبلغا عن عجز عام؟

سيتحول السؤال إذن من تساؤلات حول شروط وفاعليات الخطاب العربى إلى الفعل العام . فما هو هذا الفعل ؟

إذا استطعنا أن نجيب على هذا السؤال اجابة مقبولة فاننا قد نجد خيوطا تهيىء لنا تحديد بعض المفاهيم داخل نسقه . كالعربى من هو مثلا؟ ومن هم العرب؟ وما الثقافة العربية؟ ان علينا أن نجيب اجابات جديدة تسرق الأسئلة القديمة، اجابات مقلوبة ، اجابات أقرب إلى الاسئلة وأنى لنا ذلك؟

ليعذر القارىء كاتب هذه السطور فى عدم تقديم الصنف النباتى أو الحيوانى الذى يدخل هذا البحث فى اطاره . انه بحث فى الفعل العربى . وهذا هو كل ما يعرفه عنه . هل هو الفعل الاجتماعى ؟ أم السياسى المخصوص؟ أم العقلى؟ أم اللاعقلى؟ أننى لم أشم رائحة مميزة تسمح لى بتحديد مسبق للاطار التقليدى للبحث . أهو يفتقد هذا الإطار؟ لا أعرف؟ اسمحوا لى . أدنى أنساق وراء أى فعل لكننى مع ذلك أصمم على تجنب الأفعال التى يتسرب إليها أدنى شك بأنها أفعال غير عربية، ولهذا تجنبت البحث التقليدى المطول الذى يبدأ به كتابنا عن الثقافة الغربية* ليقايسوا بها فى النهاية مقايسة سهلة ثقافتنا . هل هذا ممكن؟ ان للغة العربية قدرة واسعة على المساعدة فى تحديد الفعل العربى بعيدا عن أية مزايدة تاريخية، كما ستوفر لنا عمليا المنطلق المنهجى مع استحالة التخلص من رواسب

---

* سواء أكانت يونانية أم مدرسية أم مدنية أم معاصرة .

ضغط الثقافة اليوم . وستعترف أولية البحث بأن اللغة العربية منطلق أساسى لشعبها وأنفاقها . لكن هل يمكن أن تكون اللغة مقياس تحديد لجميع انساق الفعل الكبير؟ أليست تميزا باهتا لوقائع حيوية ؟

اللغة تكون مهمة متى ذاب فعلها الذى عبرت عنه ، نفضل مثلا أن نضبط الأفعال فى فعليتها ، إلا أننا لا نستطيع أن نضبطها – أو كذا لاقيت – الا من وراء نسق رمزى يخولنى أن أقف ذلك الموقف التراجعى الدقيق الذى يسمح لى بالقول : أننى فهمت أو لم أفهم . هذا النسق الرمزى له وظيفة أخرى هى القدرة على تحويل ما اعتقدت أنه مفهوم من طرفى إلى مفهوم من طرف الآخرين .

ان الفعل الذى جعل العربى عربيا ليس أمامى الآن وحتى لو كان أمامى فاننى سأفهمه بنسق رمزى أتملكه بصورة غير محددة المعالم . وسأعبر عنه بنسق أكثر وضوحا للجميع وهو لغتى . الفعل العربى إذن يدون تدوينا أوليا فى أنسقة اللغة، لأن الفاعل العربى يدرك الأشياء ويفعل فيها من خلال نسق رمزى. ثم يعبر عن هذا الإدراك بالنسق الرمزى المتداول . وهذا كله خلق لغة واستخداما لها . وما دامت اللغة العربية من أهم مدونات الفعل العربى وحفظته فانها أثر أساسى من اثاره .

واللغة الغربية لا تضع دالا للشىء فقط . وانما تنظم تصور العلاقات بين الأشياء ، العربى ليس الناطق بالعربية ، بل الذى تعكس اللغة العربية انساقه الضمنية للإدراك كذلك ، وتبين زوايا التدليل عنده ، اللغة العربية إذن هى المدونة الأكثر حميمية للفعل العربى .

ولهذا اعتبرناها منطلقا أساسيا للثقافة التى عرفت بأنها اسلامية مرة، وعربية مرة أخرى، وهما معا مرات أخرى .

ان هذا الجزء من العمل يحاول أن يتبين طبيعة العلاقة بين العربيه والرسالة الإسلامية ، العربية كنسق لا العربية كلفظ ومعنى ، العربية لا كما أولها النحاة

فقط، بل كما لم يؤولوها أيضا . العربية كنسق من الضمنيات المحيلة على أكثر من امكان ..اتخذ بعضه خياما لتظليل بعض الاحتمالات . وتم التكتم على البعض الآخر لضرورة الاختيار الفعلى ، الأحادى الوجهة . أن الخطاب لابد أن يختار ما يكفيه ويبرره فقط ، ثم يقوم بجهد طارد بعد ذلك لنفى ما سواه من الامكانات التى تناقضه مع أن النسق الضمنى يسمح بها .

كيف ارتسمت الحدود بين اللغة العربية كضمنية عقلانية عامة، والرسالة الإسلامية ؟ للاجابة على السؤال لم أهتم كثيرا بادراج كل المراجع فى نهاية العمل بل حاولت أن أتعامل مع بعض المصادر تعاملا أصوليا . أما البحوث الحديثة جدا فانها لا تتوافر لمن هو ناء عن القلب . وكما تعلمون أن العالم العربى يدخن ومن عادات المدخن الصحية أن لا يندفع دمه بقوة إلى الأطراف .

- حاولت أن أحاور ، رغم ضآلة حجمى الفكرى، وانتشار العتمة من حولى - ما وصل إلى يدى من كتب تتعلق تعلقا غير مباشر بموضوع الفعل العربى فى فترة ارتسام العلاقة بين الفعل العربى العام والخطاب الاسلامى . إلا أننى لم أتوسع فى الموضوع لاسباب ، أعى منها : أننى لست مؤهلا للحوارية بحكم ضيق ذات اليد المعرفى . ومنها أننى لم أقرأ شيئا يقتصر على هذا الموضوع . قد يكون موجودا إلا أننى لم أطل عليه بعد ، لا تنسوا أننى بعيد .

- حكاية إشكال -

سأحكى لكم حكاية جرت منذ سنوات وكنت أوانها طالبا فى المدرسة العليا للأساتذة والمفتشين فى قسم الفلسفة / بموريتانيا .

وفي تلك الأيام زارنا الأستاذ الكبير د. محمد عابد الجابرى وكان يحاضر أمامنا عن البيان كرؤية ، بعد صدور الجزء الأول من نقده للعقل العربى . «تكوين العقل العربى» . وبعد انتهائه من العرض، الواضح له جدا، والمفهوم من طرف غالبية الطلبة ، بدأنا فى طرح استشكالات عليه ، وطرحت عليه أنا استكشالا قض

مضجعى منذ سنتين تعريبا قبل ذلك وهو / أن الرسالة الاسلامية وردت بلسان عربى مبين . ولهذا اللسان أنسقته الضمنية فى الإدراك . وله مرجعياته فى إدراك الأشياء . هل تسمح لنا هذه الوضعية بفهم الإسلام كرسالة ضمن النسق العام للمنطق الضمنى العربى ؟ ، وضربت للأستاذ الجابرى مثلا بما قال لنا فى المحاضرة من وجود الله والعالم . والقدرة . ثم سألته ألا يمكن أن نضيفها إلى نسق الجملة المنطقية العربية فى أكمل صورها ؟ وعلق أستاذى عمر الشارنى من تونس وكان إذ ذاك يدرسنا . بأن ما أقصده هو فى شأن ما يقوله الفيلسوف كانط عن الكشف عن المنطق أو البنية العامة للعقل . وهنا تدخل الأستاذ الجابرى ليقول بصرامة / لا . والتفت إلى الأستاذ عمر الشارنى ليقول له / أنت لم تدرك ما يسعى إليه / والتفت إلى أنا شبه محتد وهو يقول / أتريد أن تستخرج عقيدة كاملة من ضرب زيد عمرا ؟ طيب . ماذا تقول فى / «نزل المطر» ؟

– إجبت الأستاذ الجابرى وأنا واثق من أن فى سؤالى بعض الأمية / مادام له هذا التأثير / أننى سأميز بين النسق الأكمل للجملة المنطقية العربية أى المشكلة من فعل وفاعل ومفعول ، وبين الجملة التى تتشكل من فعل وفاعل فقط . رد علىّ:

– طيب يا أخى لابد من دراسة الأديان القديمة فى الشرق قبل الإسلام حتى نميز الأمر . لابد من ذلك .

انتهى الحوار هنا وبقيت المشكلة مطروحة .

– تعليقا على هذا الحديث المقتضب والعفوى جدا سأجلوا لبسا قد يخامر ذهن القارىء وهو أننى لا أقارن بين المؤولين لغويين نحاة من جهة، وفقهاء ومتكلمين من جهة أخرى. ان الأمر يتعلق بالنسق المستعمل فى العربية والذى ورد به القرآن، واستخدمه وانسجم معه منطقيا. أى عمل فيه كحقل ابستمولوجى عام . هل النسق والمعنى المباطنان للنص المباشر المنظم للفعل الاسلامى مفارقان للمنطق الضمنى للعربية أم خاضعان له؟ ان الأمر إذن فى هذا المستوى وليس فى مثال

«ضرب زيد عمرا» كما عبر بها النحاة عن بنيه اللغة العربية فى اكثر تشكل بنيوى لها، انه يتجاوز النحاة والفقهاء والمتكلمين إلى النص الاسلامى وعلاقته الضمنية بلغته . بلغته التى هى تدوين لنسق ومضامين الفعل العربى العام

– اللبس الثانى الذى أريد أن يتجنبه القارىء هو مسالة الاديان ما قبل الإسلام. ان تلك العلاقة قد وجدت من العنايه قديما وحديثا ما لن نجده منى لقصورى، ثم أننى أكثر من ذلك أبحث فى علاقة خطاب بنسق يوهم نطق الاول بالثانى تضمن الثانى للأول تضمنا حميما . هل يدعونا ذلك إلى مراجعة الابلاغ كما أوله القدماء وبعض المحدثين ؟ هل هو ابلاغ من خارج النسق بشىء جاهز مفارق؟ أم ابلاغ تخصيص من داخل النسق ؟

ان الأمر كما ترون يفتح أبواب بعض الأقبية الحصينة فى الطابق الأرضى من ثقافتنا .

إذن البداية من النسق الضمنى للغة العربية ، وتاليا علاقته بنسق الخطاب الاسلامى . وقد وقع الاختيار فى هذا الجزء على قدماء النحاة وقدماء المتكلمين، كما حددهم ابن خلدون فى مقدمته. وقد نتناول قدماء الفقهاء فى جزء آخر. إلا أن العمل يبقى محددا بأوليات وامكانات المنطق العربى . هل نستطيع الكشف عن مجموع هذه الأنسقة ؟ ذلك هو مشكلنا الأكبر . على كل حال فى المراحل الأولى سننطلق مما يقوله صاحب الكتاب / سيبويه إلا أننا مع ذلك قد نحاوره حوارا تمديديا عله يعترف لنا بأشياء أخرى كان يريد أن يقولها ومنعه مانع من قولها بمعنى آخر سنتخذه منطلقا وموطىء قدم ، كما سأخذ عينة من المتكلمين كالخياط فى كتاب الانتصار، وعبدالجبار فى بعض كتبه والأبانة للأشعرى وغيرهم قليل لا أريد أن استبق الأحداث فالعمل أمامكم .

وليعذرنى أخيرا عشاق «الانفصال» و «الذرية» و «الحصوية» و «النجاوريه» فى الثقافة العربية الاسلامية

ان الموضوع هو الفعل العربى النسقى عموما ، والفعل العربى الأصلى هو البداية . ولهذا كانت هذه العجالة التى تحاول أن تبتعد ما أمكن عن بركان الحداثة الغيرية حتى تلتقط أنفاسها وتؤسس نفسها بنفسها لتحاور تلك الحداثة من منطلق أصيل. هدف قد لا يتحقق ولكنه مطلوب .

أتمنى أن تواتينى الفرصة لألحق بهذا الجزء ثانيا وثالثا فى الفعل العربى بجميع تجلياته حتى أبنى لنفسى تصورا أقنعها به ، ولو لبعض الوقت، فى شأن ثقافة ألاحظ أن علاقتى بها غائمة ، بل مجنونة . أننى أحاول أن أهدئ أطى المعضى المض الذى فجرته طعنه الزمن والتاريخ الفعلى بينى وبين أصول كينونتى. لذلك لا لوم على فى النهاية من نفسى . انها تعذرنى . أنا وهى نعلم ذلك . لعلها تسوية مؤقتة لأننا نشعر بخطر الذوبان والتحلل معا . لنعشها إذن ما دام الخطر غير زائف بالنسبة لى ولها . نعم لنعشها فترة مهادنة مؤقتة .

م . م . أحظانا

نواكشوط4/4/1990